تصويب

ردع شركة الجريمة

نجوان درويش

اليومُ كان طيباً، استيقظت على أصوات الانفجارات بدون أن تسبقها أو ترافقها أصوات الجَوّاحة. لا يمكن قبول تسميتها بصفارة الإنذار. إنها تجوح ولا تصفر، صوتها يعطيك انطباعاً بأن باب الجحيم قد فُتح والخلق كلّهم يجوحون على بابه بأنفاس مقطوعة. اليوم (أول من أمس بتاريخ النشر) استهدفت الصواريخُ مستعمرة «الكريوت» وهي ليست بعيدة عن قرية «بلد الشيخ»، حيث ضريح عز الدين القسّام يضيء كنجمة من النور في ترابها.

أُفكّر أنه في مرقده يسمع أصوات صواريخ يُطلقها أحفاده ولا أعرف بماذا يفكّر وماذا يريد أن يقول. ما يزعجني في صباحات كهذه (هي عملياً ظهيرات ولكنني أُسميها صباحات) هو صوت الجَوّاحة وليس الخطر المفترض. الجوّاحة صوتها يخرِّب يومي بعكس أصوات الصواريخ. طبعاً أيها الأحباب لا يلهينّكم هذا الكلام. ما يستحق الانتباه هو جباليا والمغازي ودير البلح، وكل أسماء حبّة العين التي نسميها غزّة، حيث تستمر الإبادة بمنشارها الإجرامي الذي يمسك مع القتلة الصهاينة بطرفه الآخر رؤساءُ دول بُنيت على الإبادة والاستعمار، وسياستُها استثماراتٌ قديمة في الجريمة المنظَّمة. الانتباه عليه أيضاً أن يذهب للإبادة الجديدة التي بدأت في لبنان، ولن تقف هناك ما لم يُردع حماة شركة الجريمة الـCorporation المسماة «إسرائيل».. وما لم يُصَر إلى تفكيكها.

شوقي أبي شقرا كاتب إنجيل الفوضى ينزل من العربة

برحيل شوقي أبي شقرا عن عمر ناهز التسعين عاماً، يودّع الشعر العربي واحداً من روّاد تجربته الحديثة ممن رفعوا مداميك قصيدة النثر كتابةً وترجمةً وعملاً تحريرياً

يوسف م. شرقاوي

لا مناصَ من بدء الحديث عن الشاعر اللبناني شوقي أبي شقرا، الذي رحل عن عالمنا أمس، بمقاربته مع ظاهرة تُشبهه تفجّرت فجأةً في الزمن الكوني لعوامل شتّى، ومثلها فعل. أبي شقرا والدادائية شيءٌ واحد: ظاهرة انفجرت في وجه الأزمات، في وجه الزمان، في وجه اللغة، وفي وجه التعريفات المعجمية والإجرائية للأشياء كلّها. الفارق الوحيد البسيط أنّ أبي شقرا لا يعتبر نفسه منقذاً كما فعلت الدادائية، ليس حجر دومينو أخيراً سوف يستند إليه العالم كي لا يقع، إلّا أنّه اعتمد الشكل الذي يشبهه تماماً، ويشبه انفلاته من الأشياء جميعها: تبنّي منطق الفوضى، الفوضى التي لا تتحدّد، لا تنحصر، ولا يمكن الإشارة إليها والقول: هذه هي. بل تجرف القارئ معها، وعوض أن ترفع فقط من أفق توقّعه إزاء الكلمة الثانية في القصيدة، فإنّها: تُفجّره أيضاً. إنّ كلّ تجربة «نظرية التلقي» في النقد، إنْ كان في مدرسة كونستانس أو غيرها، تُصاب بما يشبه المقتل أمام هذا المدّ الشعري القائم على الفوضى. فإذا كان التلقّي هو البحث عن قنوات تواصل، وملئاً للفراغات، وكسراً لأفق التوقّع، وإذا كان دراسةً لاستجابة القارئ، فإنّ في شعر أبي شقرا ما يطوّح بذلك كلّه، وفي الآن نفسه يبني عليه. العودة هنا إلى ابن طباطبا من ثمّ رولان بارت في «لذّة النص» هي وحدها المجدية.

إذ في عالم أبي شقرا الشعري ثمّة ضفادع وسنابل وماعز وقطارات وجدائل بصل ووردتان وبطل وبطلة وكآبة حذاؤها أحمر تُسرع مثل الفهد ومخالبها دجاج الأرض، ومطربة يضربها الزبائن في الكراسي فتبلع ريقها، وغيلان، وأقدام رخوة كاللبن، وثعالب وديوك وشعوب ورؤساء وإذاعات وفضّة وسكوت وسوط وسراج ورماد وقناديل وخرافات وفراشات وصابون وصليب وقرميد ونخلات وجزمات وبلح وطباشير وأباريق وثيران وبقدونس متثائب وشمس تغلق دكّانها وتينٌ مطبوخ ومرايا مكسورة وشحّاد يأكل المساء مثل خيارة وقصّ أظافر وثغاء عنزة وصهيل فرس.

ومع ذلك، ففي عالم أبي شقرا أيضاً:

«لا، إنسان
لا، فراشة
لا، قطّة
لا، زهرة
لا، ممحاة
تدحرجت امرأةٌ اسمها لا وانكسرت الجرّة».

من هنا يصبح ما قاله ألبير كامو عن رامبو في «الإنسان المتمرّد» منطبقاً تماماً على الرجل الآخر: «إنّه بإنتاجه، بإنتاجه فقط، كان قد أشار إلى الطريق، ولكن بالصورة الخاطفة التي تكشف بها العاصفة طرف الدرب».

> في الشعر ثار على القديم وانفلت منه، كان مُحطِّماً

شوقي بأكثر من صفة، يتذكّر

التغيير هو الثابت الوحيد في حياة أبي شقرا التي عاشها متنقّلاً بين الشعر بمختلف أنواعه، من ثمّ التأسيس لتجربةٍ صحافية رائدة، غير النشاط الترجمي على قلّته، والمسؤولية الثقافية. قضاها بين 14 كتاباً شعرياً وكتاب ذكريات وكتاب نثر فنّي «سائق الأمس ينزل عن العربة». يُصرّح أبي شقرا، قبل رحيله بأشهر قليلة، بعد تسع وثمانين سنة، أنّه ما يزال قروياً، وأنّه لم ينفكّ عن هذا الإطار ولم يخرج من هذه المساحة. خصّص زمنَه الأخير المتبقّي من أجل التذكّر، الذاكرة معمله الحيّ الذي لا يتوقّف عن النشاط، هي مختبره، بعد أن مزّقها طوال تجربته الشعرية. الآن يستعيدها ويستند إليها بعد حرب طويلة. سؤال بول ريكور هنا يصبح مشروعاً: من ماذا هناك ذكرى؟ لمن هي الذاكرة؟

من أجل مجلّة «شعر»، والرفاق القدامى والتجربة: «كلّ الشعراء الذين غادروا إلى الأوسع ونزلوا عن الصهوة إلى المكان الأخير. كلّهم في ذاكرتي وفي حسباني وفي أيامي».

الشاعر يقتل والناثر يستعيد

خرج أبي شقرا من الشعر إلى النثر، لأنّ الشعرَ ليس مكاناً مناسباً للذاكرة، وهذا ما يميّز تجربته الشعرية عامّةً. في الشعر ثار أبي شقرا على القديم، انفلت منه، كان مُحطِّماً، وليس التذكّر شعراً إلّا من أجل القتل، من أجل الإنهاء وقطع الصلة المعنوية، قطع أيّة وحدة موضوعية أو صلة عقلانية؛ أمّا في النثر فإنّ الهدف كان الاستعادة.

يُعيّن باحثان في شعر أبي شقرا «السمات الدادائية في السرد الشعري لشوقي أبي شقرا» تقاطعات تجربته الشعرية مع الدادائية عامّةً، من نحو: العبثية واللامعنى - الفوضوية - اللاعقلانية - الانزياح - التناقض - نفي كلّ شيء - الريب في كل شيء - خرق الأعراف - الحرية - اللانظامية - الارتجال - إيجاد الصدمة. ويوردان عدّة أمثلة - على قلّتها - تُقارب بين مقطعه الشعري والدادائية.

لكنّ شعر أبي شقرا يبقى عصيّاً أمام الهرمينوطيقا والتأويل، أمام هرمس والمفسّرين، لأنّه يضع دائماً بناءً لأفقٍ جديد، وتغييراً للأفق.

بعد الشعر، اقتحم أبي شقرا النثر من أجل اقتحام ماضيه الشخصي، اقتحمه بالتذكّر: زمناً لم يعُد كائناً، لكنّ آثاره وشظاياه كلّها في الحاضر، وبهذا الاقتحام، بالتذكّر، استولد أبي شقرا نثره الأخير قبل أن ينزل من العربة: «إنّه نوع من المغامرة والتقاط ربما ما لم تستطع القصيدة التقاطه.

تنويعات على القصيدة وأكثر. في النثر تستطيع التقاط الفتات والتفاصيل والذرّات والتقاط الكومبارس. لأنّ الحياة تتألّف من ملك وملكة وأمير وأميرة وفارس وحبيبة والماركيز والدوقة والكونتيسة والباشا والبيك. وهنا ألمّ الأشياء التي تقع خارج السلطان، وهو لا يرى كلّ الأشياء. السلطان يرى وزيره وقائد الجند والمستشار.

ولكن أنا من يرى العسكر والخدم وكلّ الذين يؤلّفون الحياة الحلوة، وأردت أن أجسّدهم وألتقطهم قبل أن يضيعوا. أريد التقاط العالم الذي فلت من يدي وأنا منهمك في القصيدة».

وقبل ذلك كان قد فعل ما أراده: «يقولون بالفروسية أي الذي يقلب الآخر عن الحصان هو المنتصر. أنا قلبت الحياة عن الحصان وانتصرت عليها بهذه الطريقة».

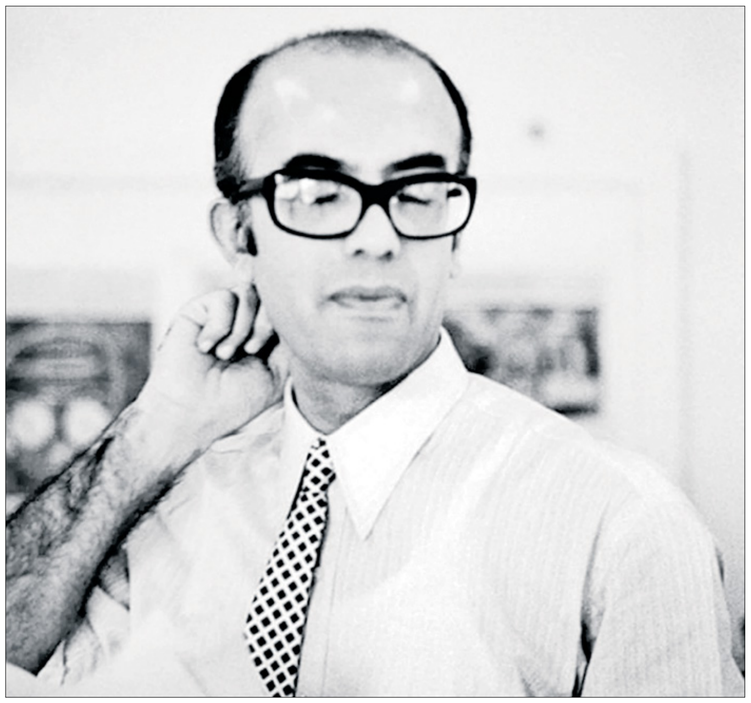

شوقي أبي شقرا 1934-2024 (وضاح فارس)

حيرته جالسة تفاحة على الطاولة

صدر لأبي شقرا شعراً: «أكياس الفقراء» (1959)، «خطوات الملك» (1960)، «ماء إلى حصان العائلة» (1962)، «سنجاب يقع من البرج» (1971)، «يتبع الساحر ويكسر السنابل ركضاً» (1979)، «حيرتي جالسة تفاحة على الطاولة» (1983)، «لا تأخذ تاج فتى الهيكل» (1992)، «صلاة الاشتياق على سرير الوحدة» (1995)، «ثياب سهرة الواحة والعشبة» (1998)، «سائق الأمس ينزل من العربة» و«تساقط الثمار والطيور وليس الورقة» (2005)، «عندنا الآهة والأغنية وجارنا المطرب الصدى» (2021).

إطلالة

إغراء الاعتراف

ممدوح عزام

لا أثر للتاريخ العربي، أو للتعبير الأدبي الحديث (الروائي خاصة) في الذاكرة القارئة للثقافات في العالم، والترجمات التي تُعلن هنا وهناك لأي عمل تنفّذه مؤسسات معنيّة بالتبادل الثقافي، لا دور نشر معنيّة بالانتشار الثقافي الذي تنتج عنه قراءة جماهيرية واسعة، وأرباح مالية مشجّعة. فلا وجود لكاتب عربي مُعاصر معروف في العالم على غرار ماركيز الكولومبي، أو سوينكا النيجيري، وثمّة العشرات من الأسماء التي نالت هذه الحظوة، من الصعب إيرادها هنا.

يشعر المرء بالحُزن حين يرى تلك الاستعراضات التي يقدّمها الكتّاب عن أنفسهم، أو حين يسجّلها أحد، أو جهة تعرض للكاتب العربي سجلّاً فخريّاً عن عدد الترجمات التي حازها إلى اللغات الأُخرى. سبق لشادن تاج الدين صاحبة كتاب «تبرئة الألفاظ: عن الإمبراطورية وإغراء الترجمة في مصر» (2011) أن وضعت عنواناً للفصل الأول من كتابها يقول: «أن يعترف بك الآخر.. إغراءٌ لا يُقاوم». والعنوان جذّاب، أما التفصيل الذي يحمله فهو مؤلم، ومحيّر، تحدّثت فيه عن الخدعة التي افتتح بها نابليون بونابرت استعمار فرنسا لمصر، إذ رضي أن تُزوّر الترجمة العربية للمنشور الذي وُزّعت منه آلاف النُّسخ على المصريّين، يقول فيه إن الفرنساويين مسلمون، خلافاً لما هو مكتوب في النص الفرنسي، وذلك كي يكسب تعاطف، وموافقة، الأعيان المصريّين على دخول جيشه إلى بلادهم، ويمتنعون عن مقاومته، ويرفعون أيديهم عن مساندة المماليك الذين يحكمونهم. ومن المعلوم أن الخداع الاستعماري استطاع أن يمرّ عبر الادّعاء بأن الجيش القادم، وأنّ قادته وأغراضه، إنما هي لخدمة المصريّين الذين يتساوون في كلّ شيء مع المستعمِر.

اللافت أن المنشور لم يخدع المعنيّين بالأمر، وحسب، بل امتدّ خداعُه، ونفاقه، إلى التاريخ اللّاحق، في عصرنا الحديث، إذ إن ناقداً حصيفاً مثل رئيف خوري سوف يكتب كتاباً يُسمّيه «الفكر العربي الحديث: أثر الثورة الفرنسية في توجيهه السياسي والاجتماعي»، ويقول فيه إن أول مجاري الثورة الفرنسية إلى الشرق - ولعلّه أعظمها - (كما يكتب، ويضع العبارة بين معترضتين) كان الفتح (كلمة الفتح يستخدمها رئيف خوري نفسه) النابليوني لمصر. وإذا كان العربي يحتفي بالثورة الأميركية والفرنسية والروسية، كما يحتفي بالروايات التي عبّرت عن جوانب من تلك الثورات في آداب تلك الأمم، فإننا قليلا ما نقرأ عن المستوى نفسه من التلقّي الإيجابي للتاريخ العربي، أو الأدب العربي، لدى القارئ الروسي أو الأميركي أو الفرنسي أو غيرهم، والحقيقة أن الآخَر لا يعترف بنا اعترافاً يعكس الجوهر الذي تتضمّنه ثقافتنا الحاضرة، واهتمام معظم المستشرقين ينصبُّ على التراث وحدَه، بينما يتجاهلون غالباً وجود الثقافة العربية الحديثة والمعاصرة. ولا ينفع الردّ بأنّ المشكلة في القيمة الفنّية، فممّا لا شكّ فيه أنّ الآداب الأجنبية قدّمت أعمالاً ذات سويّة فنّية رفيعة، ولا شكّ أيضاً في أنّ لدينا أعمالاً تُضاهيها، وقد مُنحت «جائزة نوبل للأدب» لنجيب محفوظ، وهي الجائزة الأدبية الأكثر أهمية في العالم، ولكنّها لم تكفل لأدبه أن ينتشر في الثقافة الغربية، أو العالمية، على غرار ما يحدث لغيره من الكتّاب. أين السبب، أو مَن السبب؟ ولماذا؟

(روائي من سورية)

أصغر فائزة بالجائزة منذ 37 عاماً

هان كانغ نوبل للأدب أم قُبلة الموت؟

قد يكون خبر حصول الروائية الكورية الجنوبية هان كانغ على جائزة «نوبل للآداب»، أمس الخميس، تميمةً بمواجهة لعنات الجائزة الكثيرة

جعفر العلوني

هل هي لعنةٌ أم أعظمُ اعترافٍ أدبيّ في العالم؟ بالعودة إلى تجربة بعض الفائزين بـ«جائزة نوبل للآداب»، والتي تبلغ قيمتها المالية 10 ملايين كرونة سويدية، أي ما يقرن مليون يورو، ونالتها أمس الخميس الروائية الكورية الجنوبية هان كانغ (1970)، سنلاحظ أنَّ الجائزة بالنسبة إليهم كانت لعنةً أكثر من كونها اعترافاً أدبياً عالمياً.

قد يكون الكاتب السويدي هاري مارتينسون، الذي حصل على الجائزة عام 1974، المثال الأكثر مأساوية، حيث صرّح في أكثر من مناسبة أنّ الجائزة «دمرت وجوده ككاتب وكإنسان على حدّ سواء». ولهذا التصريح ما يبرّره؛ فالشاعر كان عضواً في الأكاديمية المسؤولة عن منح الجائزة، لذلك اعتُبر حصوله عليها عملية تزوير. هكذا أدخلته الانتقادات في حالة اكتئاب؛ الأمر الذي دفع به إلى الانتحار على طريقة الساموراي، مقطّعاً أحشاءه.

أسّست هذه الحادثة لما سيُعرف لاحقاً باسم «لعنة نوبل»، لا سيّما مع اقتراب المنعطف الأخير من الألفية الثانية. لم تقتصر هذه اللعنة على «نوبل للأدب»، بل شملت غيرها من الفئات العلمية، حيث توقّف الباحثون الذين حصلوا على أقصى قدرٍ من الاعتراف في مجالاتهم، عن البحث بدقّة، أو راحوا يتناولون مسائل لم يكونوا متخصّصين فيها، أو دخلوا في حالة ثبات علمي أو أدبي.

قد تكون جائزة نوبل غير مؤذية بحدّ ذاتها، لكن إذا عدنا إلى بعض الأسماء الموجودة في لائحة الفائزين، مثل الروائي الإسباني كاميلو خوسيه ثيلا (1989) أو الجنوب أفريقية نادين غورديمير (1991) أو الشاعرة والروائية الألمانية هيرتا مولر (2009)، فإنهم لم يكتبوا أي عمل جوهريّ وهامّ بعد حصولهم على الجائزة، وهم اليوم أمواتٌ من ناحية الحضور الأدبي، فقليلون هُم أولئك القرّاء أو حتى الكتّاب الذين يعودون إلى أعمالهم ويستلهمون منها.

غير أنّ هذه اللعنة، بطبيعة الحال، لا تصيب جميع الفائزين بالجائزة. فشاعر من قامة إليوت، أو كاتب مثل خوسيه ساراماغو، لم تؤثّر عليهما هذه الجائزة، لأنّ لهما عالما أدبيا عميقا وصلبا فنّيّاً، والذي لا يمكن لأية جائزة أن تؤثّر فيه. أمّا اللعنة، فلا شك أنّها تحلّ على أولئك الذين يفتقدون للصلابة الفنّية أو الأدبية، ويتأثّرون بالأبعاد الجيوسياسية للجائزة.

ولكن هذا لا يعني أنّ كتاباً من حجم غابرييل غارسيا ماركيز لم يعبّروا عن مخاوفهم من «لعنة نوبل»، ولأسباب مختلفة. فقد وصف صاحب «مائة عام من العزلة»، في أكثر من مناسبة، الجائزة بأنها «غار الشيخوخة»، حتى إنّه قال عام 1980 إنها «حُكم بالموت: فقد لاحظتُ أنّ العديد من الفائزين مثل ألبير كامو، وخوان رامون خيمينز، وبابلو نيرودا، ولويجي بيرانديللو ماتوا بعد أقلّ من سبع سنوات من استلامهم للجائزة».

كاتب آخر هو الأميركي جون شتاينبك الذي حاز الجائزة عام 1962، وصفها بأنّها «قبلة الموت». وبالفعل، لم يستمتع بها بسبب رحيله بعد وقت قصير من حصوله عليها. رغم ذلك، تمكّن ماركيز من تحدّي لعنة الجائزة مرّتين: فقد فاز بها عام 1982، ولم يمت حتى عام 2014، كما أنّه نشر بعضاً من أفضل أعماله الروائية مثل «الحب في زمن الكوليرا» (1985)، بعد نيله إياها.

كتّابٌ من زمن آخر مثل فوكنر وهمنغوي اعتبروها «أغنية البجعة» واعترافاً متأخّراً بالمؤلّفين، وآخرون من الجيل الجديد كانت لهم آراء سلبية حولها. الشاعرة البولندية فيسلافا شيمبورسكا زعمت أنّ الجائزة التي حصلت عليها عام 1996 دمّرت حياتها الخاصة وحوّلتها إلى «شخصية رسمية». ذلك أيضاً ما اكتشفته الكاتبة البريطانية دوريس ليسينغ، التي علمت بخبر فوزها بالجائزة عام 2007 وهي في سيّارة أجرة، فنزلت منها وشهقت: «يا رب، أعنّي». تصريحات الكاتب الصيني مو يان، الحاصل على الجائزة عام 2012، ليست مختلفة كثيراً. فبعد خمس سنوات من حصوله عليها، سيغمغم قائلاً: «يا إلهي، لا أستطيع أن أكتب شيئاً».

الفرنسية آني إرنو، والتي نالت الجائزة عام 2022 اعترفت مؤخّراً، هي أيضاً، بأنّ «نوبل للأدب» لم تكن «شيئاً مفرحاً أبداً». فالجانب الرسمي منها «ثقيل»، وسرق منها «وقت الكتابة كلّه». تتابع: «لقد حوّلتني الجائزة إلى شخصية عامّة. سابقاً كنتُ كاتبة فحسب، أمّا الآن فقد تحوّلت إلى أيقونة أو رمز، أو إلى أي شيء من هذه الكلمات التي تفتقد بالنسبة إليّ إلى المعاني».

وسواء تعلّق الأمر بلعنة نوبل أو بلعنات غيرها من الجوائز، فإنّ من يحدّد الأمر حقّاً هو الكاتب نفسه، وربما التوقيت الذي يحصل فيه على الجائزة. فقد تكون أيّة جائزة بالنسبة لكتّاب متقدّمين في العمر بمثابة لعنة أو قبلة موت، لكن هذه القبلة فيها من إثارة إعادة طباعة الكتب وترجمتها إلى معظم لغات العالم وتسليط الضوء العالمي على الكاتب ما فيها.

وربّما لن يكون ناجعاً أمام قبلة الموت المغرية هذه إلّا ما فعله سارتر، الذي رفض الجائزة وقيمتها المالية خوفاً من أن «تؤثّر على كتاباته» وأن تحوّله إلى كاتب «مؤسّساتي». لقد كان النموذج الوحيد للكاتب الذي رفض إثارة قبلة الموت هذه على مرّ التاريخ.

غير أنّ لعنة «نوبل» لا تُصيب من فاز بها فحسب، بل ربّما تكون لعنتها أكبر وأكثر تأثيراً على أولئك الذين ظلّوا سنوات مرشّحين دائمين لنيلها، لكنّهم لم يحصلوا عليها، وربما طاولت لعنتها أيضاً أولئك المبدعين الذين يشعر العالَم كلّه بأنّه يجب أن يحصلوا عليها، لكن حتى الآن لم تر اللجنة ذلك. فهل هذه لعنة أُخرى من لعنات نوبل!

قد يكون خبر حصول الروائية الكورية الجنوبية على جائزة نوبل لهذا العام أمراً مثيراً. فهل قرّرت لجنة الجائزة أن تمنحها لامرأة شابّة نسبياً (وُلدت عام 1970) كي تكون تميمةً أمام لعنة الموت؟ ثم إنّ اللعنة الأُخرى التي قد ترافق كانغ هو أنّها أصغر فائزة بالجائزة منذ 37 عاماً، فكيف ستتعامل كاتبة شابة من كوريا الجنوبية مع هذا الاعتراف الأدبي من الغرب وربما من العالَم بأسره؟ وهل ستكون هناك قبلة موت بشفاه كورية؟

الكاتبة الكورية الجنوبية هان كانغ في سيول 24 أيار/ مايو 2016 (Getty)

في **الكتاب الأبيض** (2020) تتعمّق الحاصلة على نوبل للأدب لهذا العام في بعض الثقافات الشرقية، التي تعتبر اللون الأبيض لون الحداد. ربما الأشياء البيضاء التي تحيط بنا تحافظ على آلامنا، فهي تحتوي على كرب لا نعرف كيف نراه للوهلة الأولى. توغل كانغ في الألم الذي شعرت به عندما فقدت أختها، عبر بحث أدبي عميق ودقيق تصف من خلاله الأشياء اليومية.

تتناول رواية هان كانغ **النباتية** (2020) العلاقة الحميمة لسيدة تبدأ في تغيير علاقتها بالطعام والطبيعة، بأسلوب مثير ومهارة سرديّة مليئة بلحظات التأمل الداخلي والخارجي، في محاولة لإلقاء الضوء على لحظة اجتماعية وعائلية. إنها رواية عن طريقة الاستهلاك السائدة والتواصل وإقامة الروابط مع أقرب الكائنات والبيئة.

في سيئول، تحضر امرأة دروس اللغة اليونانية القديمة، فتطلب منها الأستاذة أن تقرأ بصوت عالٍ أمام الحضور، لكنها تبقى صامتة. لقد فقدت القدرة على الكلام. **دروس يونانية** (2011) هي واحدة من أبرز روايات الكاتبة الكورية هان كانغ، والتي تتناول فيها بأسلوب كلاسيكي المسافة التي تربط الإنسان مع العادات السائدة والأعراف الاجتماعية.

تولستوي ضدّ تولستوي
فصل جديد من «الحرب والسلام»

هكذا تمّ الإعلان عنها في الشهر الفائت. ومرّ الأمر دون أن يتوقّف أحدٌ عنده أو يُعلّق عليه. ولا أستغرب ذلك. فأرضنا العربية مليئة بالمآسي والإبادات والتمزّق، ولن يلفت انتباه أحد خبر تسليم جائزة سلام جديدة، خصوصاً في هذا العالم الذي يثبت كلّ يوم أنَّ الظالمين والطغاة والمجرمين هم من يقودونه. نعم، إنّها جائزة السلام الدولية الجديدة التي أعلن عنها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، والتي تحمل اسم أبرز كاتب في بلاده: ليو تولستوي؛ لتكون بذلك الجائزة الرسمية الأُولى من نوعها والوحيدة في روسيا التي تحمل اسم صاحب «الحرب والسلام». وقد أُطلق على الجائزة اسم تولستوي لأنّه «أبرز ممثّل للثقافة الروسية، إذ يتوافق اسمه وحجم إرثه الثقافي والأدبي والإنساني بالكامل مع فكرة وأهداف الجائزة الدولية»، حسب بيان الجائزة.

الفائز في النسخة الأُولى من «جائزة السلام» التي سلّمها (للمفارقة) الرئيس الروسي الذي يقود حرباً في أوكرانيا منذ أكثر من عامين هو الاتحاد الأفريقي، حيث جرت مراسم تسليم الجائزة لرئيس مفوّضية الاتحاد الأفريقي، موسى فكّي محمد، نيابة عن الاتحاد، في مسرح «البولشوي» وسط موسكو، في التاسع من أيلول/سبتمبر الماضي، تزامناً مع ذكرى ميلاد الكاتب الروسي (1828 - 1910). الجائزة التي يُراد لها أن تكون منافسة لجائزة نوبل للسلام لا تختلف عنها في شيء من حيث الشكل والمضمون؛ فهي تُمنح، شكلياً لـ«الإنجازات الفردية أو المؤسّساتية البارزة التي تهدف إلى مواجهة خطر الحرب العالمية الثالثة ومنع وقوع كارثة نووية، وللإنجازات المهمّة في مجال نزع السلاح وإرساء الديمقراطية وإضفاء الطابع الإنساني والثقافي على العلاقات الدولية. أمّا من حيث مضمونها، فيُسلَّم الحاصلون عليها ميدالية ذهبية عليها صورة الأديب الروسي ومكافأة قيمتها 250 غراماً من الذهب الخالص. ما يُفترض أن يدعو للسلام ويمهّد له ويحقّقه، يبدو أنه سرعان ما تسبّب بالحرب والعداء والانشقاق داخل الأسرة الواحدة. فها هم أفراد عائلة الكاتب من أحفاده يختلفون فيما بينهم بين رافض لجائزة تحمل اسم الجدّ يقدّمها دكتاتور يخوض حرباً، وبين من هلّل للجائزة وفرح بها.

ستيفان تولستوي، أحد أحفاد الكاتب الذي يسكن في سويسرا ويبلغ عمره 83 عاماً قال إنّ «جدّه سوف يتقلّب في قبره لو عرف بالجائزة»، في إشارة إلى اعتراضه على الجائزة، لا سيّما أنّ «البلد والرئيس الذي يمنح هذه الجائزة قام بغزو بلد آخر وهو في حالة حرب منذ أكثر من سنتين، وفي هذا تناقضٌ فاضح».

لكنّ النظام الروسي كعادته، كان قد حضّر لسيناريو مضاد، فأمام تصريحات الحفيد ستيفان، ظهرت على الفور تصريحات الحفيد الآخر فلاديمير تولستوي، أحد أعضاء لجنة الجائزة، والذي أعلن أنّ «العائلة كلها سعيدة بهذه الجائزة وعلى علم بالأمر»، إلّا أنّ ستيفان لم يتردّد في تكذيب الأمر. وهكذا بين أخذ وردّ بين الأحفاد، انقطعت الروابط الأسرية بينهم وتوقّفت الاجتماعات التي كانت تُقام، وعُلّقت النشاطات المتعلّقة بإرث الجدّ الأدبي والثقافي وصارت جزءاً من التاريخ، تماماً كما أعماله الأدبية. إنه فصل جديد من الحرب والسلام.

في أوج هذا التمزّق الإنساني الذي يمرّ به العالم، تُرتكب اليوم باسم الثقافة والسلام إباداتٌ ومجازر وحروبٌ لا تقلّ وحشية عن تلك العسكرية والسياسية، أو عن تلك التي تمارسها «إسرائيل» في الأرض العربية، أو عن الصمت العربي المذل والفاجع. هكذا تلوّث سلطات الطغيان الثقافة وتجعل منها أداةً لخدمة السياسة والأيديولوجيا. هذا ما حدث في روسيا، وسبق له أن حدث في الصين عندما أُعلن عن «جائزة كونفوشيوس للسلام» ومنحت لبوتين، وهو ما تقوم به أنظمة الطغيان أيضاً في عالمنا العربي من خلال جوائزها المتنوّعة والمثيرة للعاب: تضع رأس الثقافة كلّ يوم على خاصرة السياسة.

جعفر...